اللغة، الكلام والكتابة

الدكتور محمد ياسر حماد سليمان
جامعة سانت أندروز
سانت أندروز ــ اسكتلندا

تهدف هذه الدراسة إلى معالجة طبيعة العلاقة بين اللغة والكلام والكتابة من زاوية محددة، ألا وهي درجة الأولوية التي يتمتع بها كل واحد من هذه المفاهيم، بالمقارنة مع المفهومين الآخرين من حيث كونه موضوعا أو مادة للدراسة اللغوية. لقد طرق هذا الموضوع بالبحث والدراسة عدد لا بأس به من اللغويين المحدثين متخذين حياله مواقف متباينة في كثير من الأحيان. وعلى الرغم من هذا التباين بالمواقف، فإنه يمكننا التعميم فنقول باتفاق الآراء حول رفض الرأي الشائع بين عامة الناس والقائل بأولوية الكتابة على كل من اللغة والكلام، نظرا للدور الذي تلعبه الكتابة كوسيلة تعليمية بالدرجة الأولى.

وقبل الخوض في طبيعة العلاقة بين اللغة والكلام والكتابة من وجهة النظر التي ذكرناها أعلاه، لابد من تقديم توضيح مختصر لما نرمي إليه بمفهومي اللغة والكتابة. أما سبب إحجامنا عن تقديم مثل هذا التوضيح لمفهوم « الكلام » فمردّه، في نظرنا، اتفاق اللغويين المحدثين على محتوى موحّد لهذا المفهوم انطلاقا من كونه مفهوما بديهيا.

اللغة والكتابة

يستعمل مصطلح اللغة في أكثر من سياق، وله في الدراسات اللغوية الحديثة أكثر من معنى. فعند البعض، كبلومفيلد وتلاميذه مثلا، يشكل الكلام جزءا لا يتجزأ من طبيعة اللغة ذاتها. ويذهب بعض اللغويين إلى أبعد من ذلك، فلا يفرقون، على ما يبدو، بين اللغة والكلام، كما هو الحال عند القاسمي، الذي يثبت في كتابه « **اتجاهات حديثة في تعليم العربية للناطقين باللغات الأخرى** » بأن « اللغة هي من حيث الأساس الكلام » (1979 : ص 8). ويستعمل البعض مصطلح اللغة للاشارة إلى مجموعة القواعد أو النظم الاصطلاحية التي تصف أو تفسر الظواهر اللغوية التي يتولاها اللغوي بالبحث والدراسة. فمصطلح اللغة في عبارة « اللغة العربية » مثلا يشير إلى مجموعة القواعد والنظم التي توصل إليها

النحويون القدامى من أجل وصف وتفسير الظواهر اللغوية التي اعتبرها هؤلاء النحويون مادة صالحة للدراسة، وذلك انطلاقا من كونها في رأيهم تمثل اللغة العربية أصدق تمثيل. فاللغة بناء على هذا التحديد لمعناها تشبه إلى حد ما مجموعة القوانين أو القواعد التي تضبط أو تفسر لعبة كلعبة الشطرنج أو كلعبة كرة القدم. وأهم ما يميز اللغة هنا هي صفة التجريد، بمعنى أن اللغة في حد ذاتها ظاهرة مجردة عن المادة اللغوية التي تهدف إلى وصفها وتفسيرها، هذا بالرغم من ارتباطها بهذه المادة، والتي هي عادة الكلام، ارتباطا وثيقا. وأشهر من يمثل هذا الرأي من اللغويين المحدثين اللغوي الدنماركي هيلمسليف الذي يعبر عن رأيه هذا بالشكل التالي : (1972 : ص 97 — 98).

« It is nothing but a mere commonplace to state that, e.g. Danish when spoken, Danish when written, Danish when telegraphed by means of the morse-code, Danish when signalised by means of the international flag code of the navies, is, in all these cases, essentially one and the same language, and not essentially four different languages. The units of which it is composed differ from one of these cases to another, but the framework of relations between these units remains the same, and this is what makes us identify the language »,

وهناك رأي ثالث يقف بين هذين الرأيين. فاللغة عند الآخذين بهذا الرأي غير الكلام، ولكن دون أن تبعد أو تنفصل عنه كما هو الحال عند أصحاب الرأي الثاني. وبعبارة أخرى، يرى أصحاب هذا الرأي أن العلاقة بين اللغة والكلام علاقة وثيقة تختلف اختلافا جوهريا عن العلاقة التي تقوم، أو يمكن أن تقوم، بين اللغة وأي من المظاهر المادية الأخرى التي يمكن أن تحققها على أرض الواقع. ولعل هذا الرأي، إذا ما قارناه مع الرأيين الآخرين، هو الأكثر انتشارا بين دارسي اللغة في هذا القرن.

أما مصطلح الكتابة فسنعتمد في توضيح مفاهيمه المختلفة على ما أورده القاسمي في كتابه المذكور آنفا. يميز القاسمي بين مفاهيم رئيسية ثلاثة تنضوي تحت مصطلح الكتابة : النظام الكتابي، الخط والتهجية، محددا كلا منها كما يلي : **النظام الكتابي** : هو « مجموعة الرموز المرسومة الموضوعة لتمثيل الأفكار أو الكلام وفق طريقة مميزة » (نفس المرجع : ص 238) ؛ **الخط** : هو « مجموعة الرموز المرسومة المحددة التي يتخذها نظام كتابي معين والتي تستعملها لغة ما » (نفس المرجع : ص 240) ؛ و **التهجية** : وهي المطابقة « بين الرمز المرسوم ودلالته الصوتية أو بعبارة أخرى تنطبق على أنظمة الكتابة اللغوية... إن التهجية هي المطابقة بين الكتابة والكلام » (نفس المرجع والصفحة). إن ما يهمنا هنا من هذه المفاهيم الثلاثة هما مفهوما النظام الكتابي والخط. فعندما نتكلم عن الكتابة فيما يتبع من هذه الدراسة فإنا لا نقصد سوى النظام الكتابي والخط، مستبعدين مفهوم التهجية نظرا لعدم حاجتنا إليه في القيام بالمهمة التي نحن بصددها.

كنا في بداية هذه الدراسة قد ذكرنا الرأي القائل بعدم أسبقية أو أولوية الكتابة على كل من اللغة والكلام. كما يتضح مما تم ذكره آنفا بأن هناك إجماع على ضرورة اعتبار اللغة سابقة على الكتابة ؛ فالكتابة بلا لغة تصفها وتفسر أحكامها لا تعدو أكثر من رموز مرسومة. والأمر كذلك بالنسبة للعلاقة بين اللغة والكلام عند الذين لا يجمعون بينهما بالشكل الذي نراه عند بلومفيلد وبعض أتباعه. فالكلام بلا لغة تصفه وتفسره هو مجرد أصوات في رأي هؤلاء.

وعندما نتحدث عن أسبقية، أو أولوية، اللغة على الكتابة من جهة، وعلى الكلام من جهة ثانية، فإنا لا نعني بذلك أسبقية تاريخية زمنية، بل أسبقية إبيستيمولوجية. ولتوضيح ما نقصده بالأسبقية

الابيستيمولوجية نورد المثال التالي : لو وقعت رسالة فارسية بيد رجل عربي يعرف الخط الفارسي ولكنه لا يتقن سوى العربية محادثة وكتابة فإنه لن يستطيع فهم محتواها. ولو حصل وزار صاحبنا هذا إيران فإنه لن يستطيع فهم ما يدور حوله من كلام ؛ والسبب في كلتا الحالتين طبعا هو عدم معرفة هذا الرجل بمجموعة القواعد والأحكام التي تشكل اللغة الفارسية. إن هذا المثال يوضح أولوية اللغة على كل من الكلام والكتابة، كما يوضح هذا المثال أن هذه الأولوية ليست أولوية تاريخية بل أولوية تفسيرية. إن هذا بالضبط هو ما نقصده بقولنا إن اللغة سابقة على الكتابة والكلام إبيستيمولوجيا.

الكلام والكتابة

هناك رأيان في طبيعة العلاقة بين الكتابة والكلام. يقول الرأي الأول، وهو الأكثر انتشارا، بأولوية الكلام على الكتابة. ويورد أصحاب هذا الرأي أدلة مختلفة لدعم رأيهم وللبرهنة عليه. فبالاضافة إلى أسبقية الكلام على الكتابة تاريخيا، يشير أصحاب هذا الرأي إلى حقيقة وجود مجتمعات بشرية تستخدم بأكملها الكلمة المحكية فقط كوسيلة للاتصال البشري بين أفرادها نظرا لانتشار الأمية بينهم. كما يشير أصحاب هذا الرأي إلى كون الكلمة المحكية أكثر انتشارا من الكلمة المكتوبة من حيث معدل وحجم استعمالها، حتى في تلك المجتمعات الانسانية التي يستخدم أفرادها الكتابة كوسيلة للاتصال البشري، وحتى بين أفراد هذه المجتمعات الذين يعتمدون عادة على الكلمة المكتوبة أكثر من اعتمادهم على الكلمة المحكية في نشر فكرهم وكسب عيشهم. فمثلا يذكر القاسمي (نفس المرجع : ص 237) بأن « الكتاب المحترفين أنفسهم لا يستخدمون الكتابة في حياتهم بقدر ما يستعملون الكلام ». ويدعم أصحاب هذا الرأي موقفهم بدليل آخر مفاده أن الأطفال ينطقون بلغتهم قبل تعلمهم الكتابة.

وبالاستناد إلى ما تم ذكره أعلاه يمكن القول بأن أدلة أصحاب الرأي القائل بأولوية الكلام على الكتابة مستقاة من ثلاثة مصادر مختلفة : مصدر تاريخي، ومصدر وظيفي اجتماعي ومصدر نفسي عقلي. وهذه الأدلة في رأي أصحابها، تعتبر حجة صريحة ودليلا وافرا على ضرورة اعتبار الكلام المادة اللغوية الأولى بلا منازع. وهذا معناه أن دراسة اللغة تبدأ بالكلام بحكم الضرورة المستقاة من المصادر التي ذكرناها أعلاه.

أما الرأي الثاني في طبيعة العلاقة بين الكلام والكتابة فإنه يعتبرهما ظاهرتين متساويتين، من وجهة النظر المنطقية، من حيث صلاحيتهما كمادة للدراسة اللغوية. فلا أولوية للكلام على الكتابة ولا أولوية للكتابة على الكلام، كما سيتم توضيحه أعلاه. والآخذون بهذا الرأي لا ينكرون الأدلة التي يوردها أصحاب الرأي الأول لدعم موقفهم، ولكنهم لا يقبلون استدلالهم القائل بأولوية الكلام على الكتابة بناء عليها. فالأسبقية التاريخية للكلام على الكتابة لا تعطي الكلام، في نظر أصحاب هذا الرأي، أولوية سنكرونية على الكتابة، كما أن الأسبقية التاريخية للغة السامية الأم على اللغة العربية مثلا لا تعطي اللغة الأولى أولوية سنكرونية على اللغة الثانية من حيث صلاحيتهما للدرس اللغوي. فالحقائق اللغوية، التاريخية من جهة، والسنكرونية من جهة أخرى، تشكل ميادين مختلفة للدراسة اللغوية رغم ارتباطها بعضها ببعض.

كما لا يأخذ أصحاب الرأي الثاني بالاستدلال القائل بأولوية الكلام على الكتابة انطلاقا من كون الكلمة المحكية أوسع انتشارا من الكلمة المكتوبة في المجتمع الانساني. **فسعة انتشار** الكلمة المحكية يقابلها **أهمية** الكلمة المكتوبة في المجالات التي تدخل فيها كوسيلة للاتصال البشري. فالمعاهدات الدولية والصفقات التجارية وما شاكلها من العقود وغيرها

تستخدم الكلمة المكتوبة ولا تأبه بالكلمة المحكية. وكما أنه لا يصح أن نستدل على أولوية الكلمة المكتوبة على الكلمة المحكية انطلاقا من كون الأولى أكثر أهمية تجاريا وقانونيا وأكاديميا الخ من الثانية، فإنه لا يصح أن نستدل على أولوية الكلمة المحكية على الكلمة المكتوبة انطلاقا من كون الأولى أوسع انتشارا من الثانية.

وبالمثل، لا يأخذ أصحاب الرأي الثاني باستدلال أصحاب الرأي الأول الذي يبنونه جزئيا على حقيقة أن الطفل ينطق بلغته قبل أن يكتبها. فأسبقية الكلام على الكتابة هنا هي أسبقية تطور مهارة على مهارة أخرى كامنة يمكن لنا أن نظهر إلى حيز الوجود حتى ولو لم تتطور مهارة النطق والكلام، كما هو الحال عند الصم البكم، نظرا لسبب فسيولوجي ما. فالكلام الكتابة، مهارة يكتسبها الانسان وتتطور لديه، ولكنها ليست مقدرة موروثة عنده. إن ما يرثه الطفل هي القدرة على تعلم الكلام والكتابة، ولكنه لا يرث الكلام أو الكتابة في حد ذاتهما. وفي نفس السياق، يمكن القول بأن جهاز النطق يسمى بهذا الاسم تجاوزا من الناحية الفسيولوجية. فالوظيفة الأولى للاعضاء التي تشكل هذا الجهاز ليست النطق أو الكلام بل وظائف أخرى. فوظيفة اللسان الأولى مرتبطة بالطعام قبل ارتباطها بالنطق، مثلا.

وقد يقول قائل بأن للكلام أولوية على الكتابة نظرا لأن هذه الأخيرة ما هي إلا وسيلة لتسجيل الكلام. على أن هذا الرأي لا يمكن الأخذ به جديا نظرا لتحيزه للكتابة الألفبائية والمقطعية ضد الكتابة « الفكرية » كالكتابة الصينية مثلا، ونظرا لكونه يهمل حقيقة أن الكتابة في بداية نشأتها لم تهدف إلى تسجيل الكلام، بل إلى تمثيل الأفكار صوريا، كما هو الحال في « الكتابة الهيروغليفية ».

وخلاصة القول هي أن أصحاب الرأي الثاني لا يقبلون الرأي الأول والذي مفاده أن للكلام أولوية منطقية على الكتابة، بمعنى أن الكتابة تحتل المركز الثاني من حيث صلاحيتها كمادة للدراسة اللغوية، أو، بمعنى آخر، أن دراسة الكتابة كمادة لغوية تبدأ بعد أن يكون الكلام قد تمت دراسته. ففي رأيهم تقف الكتابة على قدم المساواة مع الكلام من حيث صلاحيتها كمادة للدراسة اللغوية، هذا من الناحية المنطقية. أما من الناحية العلمية، فعادة ما تسبق دراسة الكلام لغويا دراسة الكتابة. وهذا لا يعني أن الكتابة لا يمكن أن تتم دراستها بمعزل عن الكلام. فقد أجرى مثل هذه الدراسة الباحث فوزي الشقفة، مطبقا إياها على الكتابة العربية، وذلك في رسالة ماجستير قدمها إلى قسم الدراسات اللغوية في جامعة سانت أندروز، أسكتلندا (1978).

ولعل السبب الأهم الذي يفسر الاختلاف بين أصحاب الرأيين السابقين هو تبني أصحاب الرأي الثاني النظرة القائلة بأن اللغة الانسانية، بمظهريها الأساسيين : الكلام والكتابة، نظام اتصال بشري اصطلاحي إلى جانب أنظمة اتصال اصطلاحية أخرى، كالاشارات الضوئية، وإشارات المرور التي تسمى بالشواخص، ولغة الرموز اليدوية التي يستعملها الصم البكم، الخ. وهذا معناه أن اللغة الانسانية رغم تفردها بصفات خاصة بها تميزها عن أنظمة الإتصال الاصطلاحية الأخرى إلا أنها تفقد خصوصيتها كنظام الاتصال الاصطلاحي الأول و الأخير حسب النظرة العامة إليها. وكنتيجة لذلك لا يعدو للكلام نفس الأهمية التي تنسب إليه من قبل دعاة الرأي الأول. والنتيجة الأخرى لهذا الموقف هي أن الدراسات اللغوية تصبح جزءا من موضوع أعم وأشمل يتناول بالدراسة كل أنظمة الاتصال البشرية الاصطلاحية، بما فيها اللغة الإنسانية. هذا الموضوع هو السيمياء (Semiotics) الذي يعد اللغوي السويسري سوسير رائده الأول.

المراجع

(1) القاسمي، علي محمد : **اتجاهات حديثة في تعليم العربية للناطقين باللغات الأخرى**، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، الرياض، 1979.

(2) Bloomfield, L : **Language**, George Allen & Unwin Ltd., London, 1976.

(3) Hjelmslev, L : « Structural Analysis of Language » in **Readings in Modern Linguistics**, ed. by Malmberg, B., Mouton, 1972, pp. 97-105.

(4) El-Shakfeh, F : **A Graphological Description of the Consonantal Writing System of Arabic**, St. Andrews M. Litt. Thesis, St. Andrews 1978.

* * *